دائرة روض الرياحين

محاضرة مغال 1433

نظرية الخدمة عند الشيخ الخديم رضي الله عنه

إعداد الأستاذ صالح سلام

بمعاونة الإخوة:

عافية انيانغ

بشير امباكّي عبد الكريم

شيخنا امباكي عبد الودود

محمد المصطفى جوب الكوكي

شعيب كيبي

طوبى، صفر 1433هـ (يناير 2012مـ)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

مقدمة حول أهمية الموضوع التاريخية والفكرية

إن نوع التعامل الذي مارسناه مع خطاب الشيخ الخديم (1853 ـ 1927مـ) من خلال كتاباته وما كُتب عنه – رضي الله عنه – سمح لنا بالوقوف عند طبيعة هذا الخطاب وأهميته التاريخية والفكرية، حيث تبينّ لنا أنه خطاب صوفي متكامل يطرح نفسه على مستوى المعرفة والتاريخ[1] .

صحيح أن الطريقة التي مارسها الشيخ للتعبير عن نظريته في « الخدمة" يغلب عليها الطابع الرمزي المألوف في تقاليد كبار المتصوفة المسلمين، وهذه الرمزية ترجع في اعتقادنا إلى أمرين اثنين.

أولهما طبيعة الموضوعات التي يطرحها الشيخ في "الخدمة" . وهي موضوعات تتصل عموما بقضايا "التوحيد" بمفهومه الصوفي، والنبوة، والوحي الإلهي، الخ .

وثانيهما يتعلق بالمستوى الروحي الرفيع الذي عالج فيه رؤيته لتلك الموضوعات انطلاقا من تجربته الذاتية وما يتصل بها من أحوال وفيوضات لدنية متنوعة. غير أن هذا الطابع الروحي لا يفرغ تلك الكتابات (القصائد) من مضمونها التاريخي والإجتماعي.

أما أهمية الموضوع الفكرية والتاريخية فتكمن هنا في أن "الشيخ لم يأخذ بالخدمة في صورة مذهب، بل تبناها ك"منهج" بعد قراره التاريخي الحاسم الذي أعلنه عام 1311هـ (1893مـ)، وقطع بموجبه مع كافة أشكال التقليد والتبعية. وتحول بهذه

[1] أي المعرفة الدينية وموضوعها التوحيد. أما التاريخ فنقصد به هنا التطور الحضاري للبشرية وهو موضوع الشريعة.

"القطيعة" المنهجية من مفكر تابع مقلد إلى مفكر مبدع مستقلّ يحمل معه مشروعا "بديلا" هاما بالنسبة إلى مسيرة الحركة الإسلامية في الغرب الإفريقي بعامة وفي القطر السنغالي منه بخاصة[2] ". إذ كان من المطلوب تاريخيا أن يعمل على تأسيس هذا البديل وإرساء مبادئه الأساسية.

ومنذ البداية أدرك أنه ما كان من المطلوب تاريخيا أن ينجز مشروعه الحضاري الذي يتضمنه هذا البديل أو أن يضع حجرا واحدا في بنائه خارج تاريخ مجتمعه وأمته اللذين صنعا معا هذا التاريخ المشترك.

وبناء على هذه المهمة التاريخية الصعبة التي قرر القيام بها وفقا لمبادئ ومقتضيات ذلك القرار[3] نجده رضى لله تعالى عنه يتخذ من مفاهيم إسلامية جديدة منطلقا بين منطلقاته في بناء هذا "البديل" أو نظريته في "الخدمة".

2 صالح سلام، في مشروع كتابنا بعنوان **"من اجل إعادة قراءة المريدية".**

3 ارجع إلى الفصل المتعلق بالبيعة في كتابنا المذكور.

أولا : مفهوم الخدمة في قاموس الفكر العربي الإسلامي

أ- إشكالية التعريف

إن استخدامات كلمة الخدمة في مباحث الفلاسفة والمتصوفة المسلمين بمن فيهم كبار الفقهاء من أهل السنة لا تبعد كثيرا عن دلالاتها اللغوية المتداولة في القواميس والمعاجم العربية.

ويبدو لنا أن هذا النوع من التداخل والتقارب بين المدلول اللغوي (المعجمي) والمعنى الا صطلاحي للكلمة ترد كثيرا في كتابات الشيخ الخديم لكن دون مدلولها المنهجي الذي التزمه هو في تجربته الذاتية[4].

بـ- رأي الفلاسفة وكبار الفقهاء

أما الفلا سفة المسلمون فقد استخدموها على نحو من التجريد العقلي أي: بمعنى مفهوم من المفاهيم المتجرّدة التي انطلقوا منها عموما لشرح آرائهم الفلسفية في قضية الوجود (وجود العالم) وعلاقته بالله سبحانه، كل حسب مذهبه ومواقفه من قضايا الوجود.

فابن سينا مثلا نجده يستخدم الخدمة بمعنى الوظيفة الأ صلية التي يؤديها كل موجود تجاه من هو أعلى منه انطلا قا من الأدنى إلى الأعلى، ويتسلسل هذا الأداء الوظيفي تصاعديا إلى الموجود الأول الأعلى الذي يخدمه الكل.

4 يمكن الرجوع في هذا الخصوص إلى الفصل المتعلق بالقصائد من نفس المرجع السابق.

ويرى ابن سينا أن كل حركة في العالم المادي ليست إلا مظهرا من مظاهر هذه الخدمة المتبادلة بين الموجودات (أي المخلوقات) التي يقوم كمال وجودها بما تقوم به من أداء هذه الخدمة، والأعلى منها هو أكثر كمالا لأنه أشرف خدمة ممن تحته [5].

نترك الجانب الفلسفي لهذا التصور السينوي لنركّز على ما يتصل منه بالجانب المفهومي، ويعنينا من هذا الجانب أن ابن سينا يفسر الخدمة بمعنى وظيفة تؤديها الموجودات بالضرورة، أي بدون اختيار منها كما تؤدي المخلوقات الروحانية (الملائكة) وظائفها بالمعنى الجبري. بينما تناولها الشيخ بمعنى مهمة أو وظيفة اختيارية يؤديها الإنسان الذي قبل "الأمانة" أي أمانة الاختيار بين أن يفعل أو لا يفعل ما أمره لله به، وهنا تكمن مسئولية الأمانة التي عرضت أزلا على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها.

أما العلامة الشيخ محمد متولي الشعراوي من كبار علماء الأزهر فنجده يردد كلمة الخدمة في كتاباته ومحاضراته لكن دون أن يجعل منها موضوعا أو غاية محددة يقصدها، بل تناولها في إطار التصور الإ سلامي كما يطرحه البلاغ الإلهي والبيان النبويّ. فهو يرى من جانبه أن الخدمة نوعان: خدمة ظاهرية، وخدمة باطنية.

ويقصد بالخدمة الظاهرية تلك الوظيفة التي تؤديها المخلوقات الأخرى للإنسان بوصفه السيد أو سيد الكون بمعنى المخدوم الوحيد الذي تخدمه كافة الموجودات في هذا الكون. والخدمة هنا مجازية لأنها بمثابة نعمة خصّ الإنسان بها ليشكر، أي ليؤمن بأن هناك ربا وخالقا يهيمن على هذا الكون.

---

5 د. حسين مروة في كتابه النزعات المادية في الفلسفة العربة الإسلامية، ج 2.

أما الخدمة الباطنية فيعني بها تلك الوظيفة المقدسة التي يؤديها الإنسان بدوره تجاه ربه وخالقه شكرا على النعمة. ولا يفرق الشعراوي بين مفهوم الخدمة الباطنية ومفهوم العبادة. ويرى أن المخدوم الحقيقي والمعبود الحقيقي الوحيد مفهومان مترادفان في الحقيقة. وقال:

"إن الإنسان وسط الوجود المحيط به بمثابة السيد، فالكل في خدمته وهو لا يخدم أحدا، الكل مسخر له، وهو غير مسخر لأحد (...) وإن كان في ظاهر الأمر يخدم بعض المخلوقات، فهي خدمة ظاهرة تعود له في النهاية (...) وكل شيء يصب في خدمته إما بالمباشرة وإما بالواسطة (...) الوجود على هذه الصورة يمكن تقسيمه إلى سيد ومسود، خادم ومخدوم[6]".

ويذهب الشعراوي إلى أبعد من ذلك قائلا: "الإنسان لا يستطيع الادعاء أنه صنع هذه الأشياء المسودة ـــ أي المسخرة ـــ لخدمته؛ لأن فيها أمورا كثيرة لا تدخل تحت طاقته ولا قبل له بها (...) لا بد إذن أن يبحث الإنسان عن قوة أكبر منه ومن المسودات جعلتها جميعا مسخرة له، فيبحث عن سيد له هو الآخر ـــ أي عن مخدوم له. إن لم يفعل ذلك أصبح تائها[7]".

نفهم من واقع هذين النصين ما يلي:

أولا: أن الخدمة التي يستحقها الإنسان هنا من بقية المخلوقات الأخرى مجازية، لأنها نعمة خصه الله بها لكي يحمل الأمانة ويقوم بمسئولياته.

[6] من كتابه بعنوان "أسئلة حرجة وأجوبة صريحة"، دار العودة، بيروت، ص 104 و105.
[7] الشيخ متولي الشعرواي من كتابه بعنوان "أسئلة حرجة وأجوبة صريحة"، دار العودة، بيروت، ص 105.

ثانيا: أن من واجب الإنسان الاعتراف بالمنعم والشكر على نعمه بالإيمان والطاعة وأن يبحث عن مخدومه ليخدمه، بمعنى أن يعبده بدون شريك. فتصبح الخدمة هنا عبادة والمخدوم معبودا.

هذا هو المفهوم الإسلامي الذي يكسبه الشعراوي للكلمة، وبقي لنا الآن رأي المتصوفة المسلمين السابقين على الشيخ الخديم.

جـ- رأي المتصوفة

لقد أجمع المتصوفة بمختلف اتجاهاتهم على أن طريق السير إلى الله تعالى يمر بمرحلتين: مرحلة نفسية، ومرحلة روحية. المرحلة الأولى عامة بمعنى أنها مشتركة بين جميع السالكين من الزهاد والمتصوفة الذين سلكوا طريق الحق.

أما المرحلة الثانية فهي خاصة، أي أنها تخص المتصوفة دون الزهاد. كما يختلف فيها المتصوفة باختلاف استعداداتهم الفطرية ومواهبهم اللدنية، وما يقوم بها كل واحد منهم من اجتهادات روحية. وفسّروا هذه الاجتهادات الروحية بالخدمة. ولذلك قال بعضهمإن المرحلة الأولى تتم بالمجاهدة التي تقوم بها النفس من أجل التحرّر من قيود العالم الحسّيّ (الدنيا)، بينما تتم المرحلة الثانية بالخدمة التي تقوم بها الروح. ونفهم من ذلك أن مهمة الروح تبدأ من حيث تنتهي مهمة النفس، أو أن الخدمة تبدأ من حيث تنتهي المجاهدة. وبهذا المعنى قال العلامة المنصوري: "إن النفس تحجب الروح بارتباطها بالعالم الحسي، ولذلك وجبت تربيتها وترويضها بالمجاهدة لتصير زكية، حتى تتمكن الروح من التحرّر والترقّي بالخدمة نحو آفاق عالمها الأصلي[8]".

8 الشيخ أحمد المنصوري من كتابه بعنوان "تأملات في التصوف الإسلامي"، بيروت، ص 147.

هذه حقيقة لا خلاف فيها؛ لأن الروح لا تتعامل إطلاقا مع الموضوعات الحسية التي تتعامل معها النفس، لأنها أي الروح تنتسب إلى العالم العلوي بينما النفس تنتسب إلى العالم المادي الحسي.

من خلال هذا العرض الموجز لآراء العلماء المسلمين في الخدمة نستنتج ما يلي:

- أن الخدمة ككلمة تطوّرت من مدلولها اللغوي إلى مفهوم من المفاهيم المتداولة في الفكر الإسلامي، لكن في نطاق محدود دون أن يبلغ مستوى نظرية.
- أن كلا من ابن سينا والشيخ محمد متولي الشعرواي استخدما الخدمة كمفهوم وفق تصورهما المذهبي على خلاف مدلولها المنهجي الذي نجده لدى الشيخ الخديم.
- أنه على الرغم من هذا الاختلاف المبدئي، فإن هناك نوعا من التقارب بينهم في وجهات النظر، إذ يرون جميعا وجود تداخل وتكامل بين الخدمة والعبادة. وهنا نتساءل:

لماذا تبنى الشيخ الخديم الخدمة؟ ولماذا الخدمة بالذات دون غيرها من المفاهيم الإسلامية الأخرى؟ ثم كيف حوّلها الشيخ من مفهومها المذهبي إلى نظرية متكاملة في المنهج؟ هل لضرورة تاريخية أم لأغراض منهجية؟

ثانيا- الخدمة في خطاب الشيخ الخديم الديني

قد يكون من قبيل القول المكرّر المعتاد التأكيد على أن فكر الشيخ الخديم الصوفي لن تستكمل كل مقوماته وعناصر أصالته إلا من خلال قراءة تحليلية واعية وهادفة لمباحثه الرئيسية: "**مبحث البيعة**"، و"**مبحث الإرادة**"، و"**مبحث الخدمة**"[9].

وهذه الدراسة تتناول فكر الشيخ الخديم بالتحليل من هذه الزاوية التي لم يعتمدها الباحثون حتى الآن ممن يعرفون الشيخ أو قرأوا له، وبسبب ذلك فإن "روض الرياحين" إذ تختار مسالة "**الخدمة**"لتجعل منها موضوعا لها في هذه السنة إنما تريد - في اعتقادنا- فتح نقاش علمي جاد ومتفتح حول قضايا تراثنا الفكري الإسلامي، مساهمة منها في بلورة إشكاليات هذا التراث ومدى ارتباطه بواقعنا الاجتماعي العام.

صحيح أن هذه الدراسة قد لا تفي بالغرض المطلوب لأنها جزء من مشروع ثقافي طموح مازال يسعى للتّوصل إلى النتائج النّهائية المتوخّاة فيه، رغم إيماننا الراسخ باستحالة وجود شيء "**نهائي**" في مجالَيِ الفكر والتاريخ.

نعم، هناك دراسات محدودة تم إنجازها مؤخرا حول مسألة "**الخدمة**"،غير أن هذه الدراسات لم تستطع أن تتجاوز مستوى الوصف والسَرد التاريخيين في تفسيرها للأحداث والظواهر التاريخية والثقافية، الأمر الذي حال دون أن نتمكن -حتى الآن- من استيعاب نظرية الشيخ الخديم في "**الخدمة**".

كل هذه الاعتبارات المنهجية تحملنا مسؤولية إعادة النظر إلى هذه المسألة "**الخدمة**" انطلاقا من إطارها التاريخي.

---

[9] ارجع إلى مشروع كتابنا السابق الذكر.

لقد انتهينا في المقدمة إلى تساؤلات حول ما إذا كان الشيخ قد تبنى "**الخدمة**" بصدفة؟ أم لضرورة تاريخية؟

من الثابت أن قانون الصدفة لا يقره العلم ولا الدين. والشيخ نفسه يستبعد مثل هذا القانون في إشاراته الصوفية حيث نراه يُرجع الأ صلَ التاريخيَّ "للخدمة" إلى "المشيئة الإلهية"، ويقول في ذلك:

سَبَبُ غَيْبَتِي أَنَّ اللـهَ أَرَادَ أَنْ أَنَـال مِنْهُ جَاهَـا

وَأَنْ أَكُونَ شَافِعاً لِقَوْمِي وَأَنْ أَكُونَ خَادِماً فِي الدَّوْمِ

وقوله بـ"شفاعة" قومه يدل ضمنيا على مدى ارتباط كل من تلك الغيبة البحرية (المنفى) و "الخدمة" بواقعه السياسي والاجتماعي.

ومعنى ذلك أن الضرورة التاريخيّة لميله إلى تبني "الخدمة" قد كان لها أن تتحقق في مثل تلك المرحلة مقترنة بـ"المشيئة" الإلهية. وهذه "المشيئة" وتلك الضرورة التاريخية اختارتا شخصية الشيخ الخديم للقيام بمهمة مزدوجة:

أ- مهمة الانتقال التاريخي بالحركة الفكرية الإ سلامية مع التحولات السياسية والاجتماعية العميقة.

ب- مهمة "خادم" رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالضرورة التاريخية و"المشيئة" الإلهية إذن حمَّلتا الشيخّ هذه المهمة المزدوجة بكونها مهمة فكرية وتاريخية في آن واحد. فهي إذن كانت تحتاج إلى شخصية قادرة على حملها بوفاء وجدارة. لكن هل كان الشيخ هذه الشخصية المطلوبة؟

نجيب على هذا السؤال بالتأكيد على أنه كان كذلك بالفعل. لقد اجتمعت في شخصيته قدرات ومواهب وطاقات غير عادية أمكنته أن يستوعب معارف عصره بأعليما وصلت إليه تلك المعارف من مستوى التطور .

وشهادات المستعمرين والمؤرخين والعلماء المعاصرين له بأنه فاضل دهره وواحد عصره وكبير شيوخ جيله شهادات لها أساسها الواقعي .

كل ذلك يدل على أنه كان المرشح المؤهل تاريخيا للقيام بتلك المهمة الشاقة في بعديها الديني والتاريخي .

إن النشاط العلمي المتنوع الذي امتلأت به حياته حتى أتى بمحصول وافر وإنتاج هائل في فنون الأدب واللغة وشملت مؤلفاته جميع أنواع العلوم قد أضاف إلى استيعابه العميق لمعارف عصره ومشاركته في إثراء هذه المعارف، وفي دعم وسائل تطويرها في المنطقة. ويعني ذلك أنه كان مؤهلا بالفعل لأداء مهمته العظيمة أي "الخدمة" استجابة لدواعي الضرورة التاريخية التي كانت تقتضي انتقال الفكر الصوفي في البلاد من مرحلته التقليدية إلى مرحلة جديدة.

وكان على الشيخ أن يرسي بذلك أساسا متماسكا لها يشيد عليه مشروعه البديل في المرحلة الجديدة، وكتاباته الصوفية التي أمكننا الاطلاع عليها تدل على أنه قد حقق مهمته بقدر ما تتحمل طبيعة كل مرحلة انتقالية كتلك المرحلة، وبقدر ما يستطيع مفكر مثله تكونت شخصيته العلمية في ظل الفكر الصوفي التقليدي أن يستقل عن هذا الفكر وأن يتخلص من تأثيرات البدع والشبهات المتجذّرة آنذاك، وأن يقف ضد كل من يحول بينه وبين تلك المهمة الشاقة. وربما كان وعيه العميق بجسامة

هذه المهمة المزدوجة من جملة العوامل الموضوعية التي حملته على تبني "الخدمة" كـ "منهج" و"رؤية" بدلا من المناهج التقليدية المعروفة في تاريخ التصوف الإسلامي.

من المفهوم إلى نظرية

إنّ اهتمامات الشيخ المبكرة بمسألة "الخدمة" تعود حسب ما يبدو لنا في الظاهر إلى عام (1301ه/1883-1884 مـ)، أي قبل أن يتبناها عمليا في عام (1313 هـ/1895 مـ) بمفهومها الوظيفي ومدلولها الإسلامي الأصيل. لكن على الرغم من احتفاظه بهذين المدلولين فإنه طورها على نحو من التعميق باستخدامها في صورة "منهج بديل" عن المنهج التقليدي القائم على قاعدة "المجاهدة" بمعناها النفسي؛ علما منه بأن ظروف المرحلة (1893-1895م) لم تعد تسمح باعتماد هذه القاعدة السلوكية التي لجأ إليها زهاد ومتصوفة القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة.

أَوَّلُ مَا ابْتَدَا بِهِ الخَـديمُ تَعَلُّقٌ بِمَنْ لَهُ التَّقْدِيمُ

وَأَظْهَرَ الخِدْمَةَ عَامَ حَيْسَشِ وَقَلْبُهُ أَضْمَرَهَا مِنْ أَسَشِ

ومن خلال هذه الخطوة الانتقالية تحولت الكلمة لديه من إطارها المفهومي إلى نظرية من بين النظريات الصوفية الكبرى المعروفة في تاريخ الفكر الإسلامي الوسيط[10]. ومنذ هذا التاريخ صارت "الخدمة" كمفهوم ونظرية تقترن باسم الشيخ الخديم لأول مرة في الفكر الإسلامي، حتى لقب بـ"خادم" رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[10] نظرية "الحب الإلهي" عند رابعة، ونظرية المعرفة عند ذي النون المصري، ونظرية «الإشراق» عند السهروردي وابي يزيد البسطامي، ونظرية «الحلولية» عند الحلاج، ونظرية "وحدة الوجود" عند ابن عربي، الخ. وهذه النظريات صنفت لقيمتها الفكرية والإبداعية.

ومبدئيا يمكن القول بأن تلك الخطوة الانتقالية كونت في رأينا الإطار المنهجي الذي انطلق منه الشيخ في بناء نظريته في التصوف. ويقوم هذا الإطار المنهجي على عدة مبادئ نظرية. ومن أبرزها ما يلي:

أولا: أن النصوص الناطقة وغير الناطقة بـ«الخدمة»[11] تدل على أن هذه الأخيرة تكوّن الأساس الذي انطلق منه الشيخ للوصول إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بنفس الطريق الذي نهجه جميع المتصوفة باختلاف طرائقهم ومذاهبهم في تأسيس المعرفة (أي المعرفة اللدنية). ونعني بذلك طريق الإلهام أو"الكشف" الباطني أو المشاهدة لحقيقة الوحدانية.

أُبَايِعُ الْيَوْمَ الرَّسُولَ الْمُصْطَفَى	بِخِدْمَــــــةٍ وَأَسْأَلُ للهَ الْوَفَـــآ
يَعْبُدُ "كُلِّي" للهَ رَبَّ الْعَالَمِيــنْ	إِنْ شَاءَهُ بِخِدْمَةِ الْهَادِي الأَمِينْ[12]

ثانيا: أن الشيخ كما يبدو لنا من خلال هذين النصين جعل من "الخدمة" وسيلته السلوكية في سيره وتوجّهه الكامل إلى الله تعالى، بمعنى أنه رضي الله عنه مريد يريد وجه الله تعالى وسائر إليه بواسطة خدمة رسوله عبادة له سبحانه.

ويهمّنا من هذا كله أن "الخدمة" هنا تتضمن فكرة الوصول بقدر ما تكون في الوقت نفسه ، الوسيلة العملية لتحقيق هذا الوصول الذي متى تحقق حصلت المعارف والمواهب اللدنية بحيث يبلغ السالك أو المريد مستوى "المشاهدة" لحقيقة الوحدانية. ذلك هو الأساس في كل نظرية صوفية كما يوضحه حسين مروة بقوله: "إن الأساس النظري للتصوف الإسلامي يبدأ من فكرة الوصول إلى الله بطريق "الكشف" الباطني أو

[11] أي النصوص التي تنطق صراحة بكلمة «الخدمة» أو «الخادم» أو "الخديم" وتلك التيلا تنطق بها صراحة، وهي تبدو أهم وأعمق من الأولى.

[12] من ديوان الأمداح النبوية.

"المشاهدة" ، لكن الوسيلة العملية إلى ذلك سلوكية، وتقوم أصلا على قاعدة "المجاهدة النفسية[13]" .

الجديد هنا عند الشيخ أنه رضي لله عنه استبدل هذه القاعدة النفسية الأُحادية الجانب التي تلغي تماما الحياة الاجتماعية والاقتصادية بقاعدة سلوكية أخرى أشمل وأعم اصطلح عليها ب"الخدمة" استجابة لظروف المرحلة التي لم تكن تسمح لمفكر ديني مجدد بإلغاء الحياة الاجتماعية، لاسيما وأن روح العقيدة الإسلامية ترفض مثل هذا النوع من الإلغاء المعوّق لحركة التاريخ،خاصة في تلك الحقبة الانتقالية الحاسمة في تاريخ الإسلام وتطوره في الغرب الإفريقي.

فيما يتعلق ب"الخدمة" كوسيلة سلوكية جديدة للوصول إلى المعرفة والمواهب الإلهية، يقول الشيخ:

عَلَّمَنِي الْعَلِيمُ تَعْلِيمَ الْعُلُومْ وَقَادَ لِي فِي خِدْمَةِ النَّبِي الْعُلُومْ

خِدْمَةُ خَيْرِ الْعَالَمِينَ أَدْخَلَتْ فِي كَلْكَلِي أَسْرَارَهُ فَدَخَلَتْ

بِخِدْمَةِ الْمُخْتَارِ صِرْتُ جَارَا بَاقٍ مُقِيتٍ فِيهِ لَنْ أُجَارَى

خِدْمَةُ خَيْرِ الْعَالَمِينَ سَلَبَتْ لِيَ الْمَقَامَاتِ مَعاً فَانْسَلَبَتْ[14]

صحيح أنه رضي لله عنه، احتفظ بقاعدة "المجاهدة" لكنه استبقاها كمبدأ من مبادئ نظريته في "الإرادة" التي أسس عليها فلسفته الدينية في التربية.

[13] حسين مروة في كتابه النزعات المادية، ط 1999، ج 2، ص 159.
[14] الفلك المشحون المصنوع من الذكر المصون.

ثالثا: الطابع التعميمي الذي يميز منهجه في "الخدمة" عن منهج " المجاهدة" في مفهومه التقليدي؛ لأن التعميم لا يعني سوى تجاوز كل ما هو جزئي خاص أو محدود إلى ما هو كلي عام وشامل[15]. ولذلك اعتبره علماء الفكر الإنساني سمة أساسية من سمات الفكر النظري.

وقارئ الشيخ من خلال نصوصه الصوفية يستطيع أن يدرك أنّ الخدمة كنظرية صوفية جديدة تحتوي انشطارا في آن واحد إلى ما هو روحاني نفسي (باطني أو إلهي) وما هو واقعي اجتماعي (ظاهري أو إنساني) . ونحن إذ نثير هذا الانشطار إنما نريد التأكيد على أن السلوك عند الشيخ لم يعد مجرد سلوك نفسي (باطني) فحسب أو سلوك محصورفي نطاق "الأنا" الصوفية الضيق، بل أصبح سلوكا شاملا لجميع أشكال النشاط الاجتماعي أي العبادة بمفهومها الإسلامي الشامل[16].

إن هذه التوفيقية على الأصالة بين ما هو إلهي وما هو إنساني أو ما هو "باطني" وما هو "ظاهري" تدعونا إلى الاستنتاج الآتي:

نفهم من خلال هذا العرض الموجز لما اعتبرناه جوانب نظرية في "الخدمة"أن الشيخ عالج في هذه التوفيقية إشكالية عصره سواء قصد ذلك أم لا. المهم أننا نجد في نظريته هذه حلا رائعا لتلك الإشكالية الثلاثية القيم. ونعني بها إشكالية الشريعة-الحقيقة-الطريقة التي عالجها علماؤنا كل حسب رؤيته ومنطلقاته المدرسية والاجتماعية.

والمرجّح أن الشيخ قصد ذلك قياسا على موقفه التوفيقي المبكّر الذي وقفه في مؤلفاته المدرسية التي كتبها منذ المرحلة الأولى من مراحل حياته العلمية حيث قال :

---

15 راجع طبيب تيزيني في كتابه "مشروع رؤية جديدة"، طبعة دار دمشق، ص 30 – 40.

16 راجع سلك الجواهر، ص 345.

فَوَاجِبٌ عَلَى الْعِبَادِ طُرًّا   جَمْعُهُمَا لِكَيْ يَنَالُوا الأَجْرَا[17]

تلك إذن من جملة المبادئ التي تكسي "الخدمة" طابعها النظري عند الشيخ الخديم.

[17] راجع كتابه مسالك الجنان.

الخدمة كـ "منهج" و"رؤية"

بناء على كل ما سبق يمكننا تعريف "الخدمة" كنظرية جديدة في التصوف الإسلامي بأنها "منهج الشيخ الخديم في السلوك والعبادة " . وهذا التعريف الأولي يكاد ينعقد عليه الإجماع.

ا- يرى علماء الإسلام المعاصرون أن كل منهج مهما كان شكله ومصدره إنما يهدف إلى تصحيح سلوك الإنسان العقلي والنفسي والاجتماعي بحيث لا يشذ ولا ينحرف عن الصواب أي عن الأوامر الإلهية دون النواهي. ويشمل المنهج الخديمي كل نشاط في الحياة من قمة الإيمان بوجود لله ووحدانيته على مستوى الوعي إلى إزالة الأذى عن الطريق على المستوى الاجتماعي .

من الثابت أن لكل نظرية منهجا ومفاهيم خاصة بها يستخدمها صاحبها في التعبير عن رؤيته للقضايا التي يعالجها. ولذلك نجد الشيخ الخديم يتخذ من مفاهيم إسلامية خاصة منطلقا بين منطلقاته في بناء نظريته في "الخدمة" مع نحو من التعميق والتعميم لهذه المفاهيم. فاعتبر في الوقت نفسه "الشكر"، و"الثناء"، و"المدح"، و"الصلاة" على النبي، و"الإستغفار"[18] جزءا أساسيا من "الخدمة" وأسلوبا له في التعبير.

ونحن حين نتكلم هنا عن هذه المفاهيم الخديمية،إنما نريد التنبيه إلى بعدها التاريخي والاجتماعي غير المألوف في التجارب الصوفية، بمعنى أنها لم تعد مجرد

[18] أما ما يمكن أن يسمى بالشطحات التي ترددت كثيرا في كتابات الشيخ المتعلقة بـ **"الخدمة"** فتدخل في نطاق مفهوم «الشكر» بناءا على قوله تعالى: **«وأما بنعمة ربك فحدث»**.

مفاهيم محصورةفي نطاق فحواها الديني(الروحي)،بل تطورت عند الشيخ إلى مفاهيم نظرية ذات مضمون اجتماعي

وَاجْعَلْ لأَهْلِ الزَّرْعِ وَالتِّجَارَهْ　　إِعَانَةً أَوْ يَحْتَوُوا الْبِشَـــارَهْ

مَعَ سَلاَمٍ قَدْ يَحُوطُ وَطَنِي　　عَنْ كُلِّ مَا نَخَافُهُ مِنْ فِتَنِ[19]

لقد سبق أن أشرنا إلى أن منهج الشيخ الجامع في "الخدمة" يشمل جميع أشكال النشاط الاجتماعي والروحي للإنسان، لكن هذا النشاط المتعدد الأبعاد "يجب" أن يكون محصورا في نطاق الرؤية الخديمية التي تتميز بأصالتها الإسلامية.

ما هي هذه الرؤية؟ وما هي أبعادها الدينية والتاريخية؟

يطرح الشيخ من خلال نصوصه الصوفية ما اعتبرناه رؤيته في "الخدمة" .وتقوم هذه الرؤية على ثلاث قضايا أساسية، هي: «الحقيقة»و»الشريعة» و»الطريقة». وهو في هذا الطرح يعالج إشكالية عصره كلها سواء في المشرق والمغرب العربيين أو في الغرب الأفريقي.

قضية الحقيقة (أو العقيدة)

تتعلق هذه القضية بأساس العقيدة الإسلامية، وهو التوحيد أي الإيمان بوجود لله تعالى ووحدانيته في ذاته وصفاته وأفعاله، بمعنى أن لله تعالى واحد لا يتعدد، وأن كل ما سواه من خلق لله تعالى، يتأثر ويتغير ويتحرك بقدرة خالقه المهيمن على كل شيء والغني الذي يفتقر إليه كل شيء في العالمين (عالم الغيب والشهادة).

[19] من ديوان يشمل مجموعة قصائد، طبعة طوبى.

ونفهم من ذلك أن "الحقيقة" هنا تعني حقيقة الألوهية، وقد أشار الشيخ إلى ذلك بقوله: "إن الألوهية معناها استغناؤه بنفسه عن غيره ،والربوبية معناها افتقار غيره إليه، فالله هو الغني بنفسه عن غيره ، والرب هو مفتقَر كل شيء إلى نعمته[20]" .

ثم أشار الشيخ إلى قوله تعالى: "**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**، ثم قال: "فمن ثبت ذلك في قلبه وجب عليه أن يعبد لله تبارك وتعالى بامتثال أوامرهواجتناب نواهيه[21]" . وهنا يدعونا الشيخ إلى الأمانة المقدسة.

وقد بين ذلك العلامة سيد قطب بعبارات أخرى فقال: "حين نراجع جميع الانحرافات والمزالق والانحلالات في خلق وسلوك الفرد والجماعة على مدار التاريخ، يتبين أنه من هذا المنبع الرديء ينبثق الشر والفساد والانحلال في جميع العصور. إنه بدون هذه الحقيقة لا يقوم للحياة الإنسانية كيان[22]" .

ويرى علماء الإسلام أن الوارث أو العارف بهذه الحقيقة له تأثير في حياة البشر بشكل حاسم في تكوين اعتقادهم واستقامتهم وفي سلامة تصورهم وتطهيرهم وجذبهم إلى لله تعالى.

قضية "الشريعة" (أو القانون الأساسي في الإسلام)

تدور هذه القضية حول القوانين الإلهية والنبوية العامة التي تنظم حياة البشر وفق مقتضيات العقيدة، أو ما اصطلح عليه الفقهاء بالأحكام الشرعية. وقد قال الشيخ

20 المجموعة المشتملة على أجوبة ووصايا الشيخ، طبعة إيطاليا، ص 262.

21 نفس المصدر.

22 سيد قطب في كتابه "مقومات التصور الإسلامي"

الخديم: «إن العلم بذلك والعمل به هو الفقه[23]». ومن خلال هذه القضية عالج الشيخ ما للعبد وما عليه تجاه نفسه وربه وتجاه الآخرين[24].

قضية "الطريقة" أو "المنهج"

لسنا من أولئك الذين يفسرون الطريقة في خطاب الشيخ الخديم الصوفي بالمعنى المذهبي التقليدي. إذ نرى نحن أنه رضي لله عنه استخدمها للدلالة على معنى المنهج، أو الطريق السليم الذي يقي السلوك ويصححه، كما يطهّره من جميع أشكال الشرك، وهو نفس الطريق الذي رسمه الرسول عليه السلام، وربّى عليه أصحابه قبل ميلاد العلوم الدينية. ومن بعده دعت الضرورة التاريخية إلى تجديده بأيدي عدد من المجددين والمصلحين السابقين .

ونفس هذه الضرورة المقترنة دائما بالمشيئة الإلهية حمّلت الشيخ الخديم مهمة تجديد الطريق على الأصالة من أجل تصحيح سلوكيات وتصورات قومه في عصره وإحلال طريقة ملائمة للتعامل مع قضايا "العقيدة" و"الشريعة" بهدف العودة بهما إلى ما كانتا عليه في العهد النبوي والراشدي أي قبل ظهور الخلافات المذهبية في الإسلام.

وهنا نجد الشيخ يستخدم كثيرا مفهوم الإخلاص والإحسان للدلالة على هذا المنهج من خلال وجهين هامين:

الوجه الأول: أن الطريقة كمنهج تعني: مجموع الشروط الضامنة لقبول أو لصلاح كل ما يصدر عن العبد من أشكال العبادة أو السلوك بمفهومه الشامل.

---

23 الشيخ أحمد بامبا، من المجموعة المشتملة على أجوبة ووصايا الشيخ، ط إيطاليا، ص 262

24 راجع مؤلفات الشيخ الخديم التعليمية.

والوجه الثاني: يتمثل في الجانب السلوكي المرتبط بحياتنا الروحية أو النفسية (الداخلية). وقد أشار الشيخ إلى ذلك بقوله إن "بركة الإحسان هي إصلاح الإيمان والإسلامأي "العقيدة" و"الشريعة" (...) وأن بالإحسان يفوز المطيع بقبول سعيه. فكل من عمل عملا بلا إخلاص فإن ذلك العمل مردود عليه قطعا. ولذلك يظن كثير من الناس أنهم على شيء فإذاهم ممّن لم يكونوا على شيء[25]"

ولذلك نظر إليه العلماء (أي المنهج أو الطريقة) على أنه يتضمن فكرة الوصول إلى معرفة الوحي بجانبيه الباطني والظاهري. لكن ذلك يتم عند الشيخ الخديم بواسطة النبي صلى لله عليه وسلم بصفته المدخل والممثل للوحي الإلهي. وقد أشار الشيخ إلى هذه الصفة التمثيلية بقوله:

فَكَيْفَ أَتْرُكُ عَاماً شُكْرَ وَاسِطَةٍ … أَسْنَى الْوَسَائِطِ طُرّاً وَالْوَسِيلاَتِ

فَحَازَ مَا حَازَ مِنْ سِرٍّ يُخَصُّ بِهِ … وَقَدْ دَنَا فَتَدَلَّى بِالْمُنَاجَاتِ

وَالأَنْبِيَاءُ وَكُلُّ الْمُرْسَلِينَ مَعاً … تَعَلَّمُوا مِنْهُ آدَابَ الْعِبَادَاتِ

هُوَ الْوَصُولُ الَّذِي مَوْلاَهُ يُوصِلُنِي … بِجَاهِهِ وَيَقِينِي مِنْ حِجَابَاتِ

إلى أن قال رضي لله عنه بأنه صلى لله عليه وسلم:

يَقُودُ بِالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ مَنْ … أَطَاعَهُ لله فِي كُلِّ زَمَنْ

ذلك هو الفحوى الديني لـ "الخدمة" كرؤية عندنا. وتلك هي الركائز الثلاث (الحقيقة والشريعة والطريقة) التي تقوم عليها هذه الرؤية. وقد أشار الشيخ إلى ذلك بقوله:

---

25 من المجموعة المشتملة على أجوبة ووصايا الشيخ، مصدر سابق، ص 67.

أَسْلِمْ لَهُ كُلَّكَ عَنْ إيمَانِ   وَلاَزِمِ الإِحْسَانَ لِلرَّحْمَنِ[26]

نترك جانبا ما اعتبرناه البعد الميتافيزيقي (أو الجانب الغيبي الباطني) في "الخدمة" ونحاول الكشف عن المضمون التاريخي انطلاقا من الواقع التالي :

إن ضعف الإحساس بالحقيقة الإلهية والانحرافات عن تلك الركائز الثلاث المتصلة بالحقيقة الإلهية يشملان مجموع العوامل التي وصفها الشيخ في كتابه "مسالك الجنان" بـ "أسباب الردى" . فكان لابد من رجل عظيم يجدد هذه القضايا المتعلقة بالعقيدة وبالمنهج النبوي في تربية النفوس والسمو بها نحو الهمم العالية[27] .

إن الشيخ نفسه يتكلم عن هذه المهمة بعد أن رشّحته المشيئة الإلهية والضرورة التاريخية للقيام بأدائها :

أُجَدِّدُ التَّوْحِيدَ وَالْفُرُوعَا   مَعَ تَصَوُّفٍ حَوَى الْبُرُوعَا

ونقل عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما اختاره ليكون خادما له في هذه المهمة أمره بقوله : « ربّ أصحابك بالهمة ولا تربّهم بالدرس فقط » .

وهنا يحدثنا الشيخ عن المصدر الغيبي (الباطني) لـ "الخدمة" كمهمة مقدسة قائلا :

رَامَ رَسُولُ للهِ مِنْ إلَهِي   كَوْنِي خَدِيمَهُ وَعَبْدَ للهِ[28]

شَكَرْتُهُ إذْ خَصَّنِي   بِخِدْمَةِ الْمَاحِي السَّنِي

---

[26] من قصيدة "الله من كل كريم أكرم".

[27] المجموعة، ص 464.

[28] من قصيدة مخطوطة.

ذَا خِدْمَةٍ فِي الْعَلَــنِ لَــهُ وَفَـــــكٌّ وَلَـمِي[29]

إن النقطة العقدية الحاسمة في اختياره صلى الله عليه وسلم الشيخ "خديما" له، وفقا لما أراده الله تعالى، تكمن في المفهوم الإسلامي الأصيل لـ "خاتم النبوة" الذي يكسي "الخدمة" مدلولها التاريخي والإنساني.

يشرح لنا العلامة الشعرواي هذا المفهوم بأنه عند ما تصبح "أسباب الردى" عائقا لانسجام الكون القائم على العبودية لله وحده بلا شريك، والدينونة له وحده بلا منازع، «تتدخل السماء لتاتي بمنهج الله إلى الناس. وفي هذه الحال لا بد أن يكون هذا التدخل على لسان رسول جديد بمعجزة جديدة. ولكن الله قد شاء أن يختم الرسالات برسالة سيدنا محمد ولم يات نبي جديد بعده (...) إذن فالرسول هو الخاتم. ومعنى الخاتم أن الله أودع في أمته خصيصة تقوم مقام تعدد النبوات وتعدد الرسالات. ولهذا وجب أن تكون رسالته شاملة أو جامعة لعناصر البقاء، وفي أمته عناصر الحفاظ على الرسالات. ولذلك قال عليه السلام: "الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة" (...) أن محمدا مؤهل لأنه يتلقى كمالات الرسالات كلها ويختمها[30]".

وقد أشار الشيخ إلى هذه الخصوصية التي ينفرد بها مخدومه قائلا:

حَازَ رَسُولُ للهِ مَا لَمْ يَعْلَمِ إِلاَّ الَّذِي خَاطَبَهُ بِكَلِمِ[31]

---

29 من قصيدة جذب القلوب.

30 الشيخ محمد متولى الشعراوي، المصدر السابق، ص 300.

31 من قصيدة للشيخ الخديم.

وهكذا تجد الخدمة مصدرها الديني في مقتضيات هذا التصور الإسلامي الأصيل لمعنى "خاتم النبوة"، بمعنى أن قوله رضي لله عنه:

رَامَ رَسُولُ للهِ مِنْ إِلَهِي كَوْنِي خَدِيمَهُ وَعَبْدَ للهِ[32]

يعني كما نفهمه أنه صلى لله عليه وسلم رشحه للقيام بمهمة مواصلة هذه الرسالة الخاتمة الجامعة لجميع كمالات وخيرات الرسالات السابقة، ومواصلة هذه الرسالة الخاتمة الجامعة تقتضي بالضرورة نقل سرية تلك الخصوصية إلى المرشح لأداء هذه المهمة التاريخية الجامعة كمعجزة من معجزاته صلى لله عليه وسلم. وكلام الشيخ نفسه يدل على ذلك:

كُلِّيَّتِي مُعْجِـــــــــزَةٌ تَأَخَّرَتْ وَخَيْرُ خَيْرَاتٍ لَدَيْكَ ادُّخِرَتْ[33]

نفهم من هذه المقولة أن سرية الخدمة تكمن في هذا اللغز العميق "خير الخيرات" أو جامع خيرات و كمالات الرسالات السابقة الدالة على الخصوصية المحمدية،ونقل "هذه السرية" الجامعة إلى المرشح للمحافظة عليها والقيام بممارستها تاريخيا، إنما تم بتخصيص من لله تعالى، وبالتالي أصبح الشكر عليها كنعمة عبادة وخدمة في الآن نفسه[34]

شَكَرْتُهُ إِذْ خَصَّنِي بِخِدْمَةِ الْمَاحِي السَّنِي

ذَا خِدْمَةٍ فِي الْعَلَنِ لَهُ وَفَـــــــكَّ وَلِمَي[35]

---

32 من قصيدة مخطوطة.

33 من قصيدة متن الباقي القديم في معجزات الراقي المخدوم.

34 راجع كتابنا المذكور سلفا، وانظر القسم المتعلق بالعلاقة بين **الخدمة والعبادة** وعلاقتهما بمفهوم **العمل**.

35 من قصيدة الشيخ الخديم المسماة بجذب القلوب لعلام الغيوب.

بموجب ما تقدم نفهم أن "الخدمة" كمنهج ورؤية تدل في مضمونها التاريخي على هذه المهمة الشاقة نظرا لصعوبة شروطها وخطورة عدم الوفاء بها، إذ تتضمن في الوقت نفسه مسئولية الأمانة و مسئولية الاستخلاف في الأرض.

ونعني بمسئولية الأمانة هنا: مسئولية حرية الاختيار بين "افعل" و"لا تفعل"،أو الأمر والنهي الإلهيين، وما تقتضيه هذه الحرية من المسئولية والجزاء يوم القيامة. قال الشيخ الخديم: «إن جزاء الفريقين بقوله تعالى: "**لَئِن شَكَرْتُمْ**" بامتثال الأوامر واجتناب النواهي "**لأَزِيدَنَّكُمْ**" من إكرامي وانجائي، "**وَلَئِن كَفَرْتُمْ**" بترك الأوامر وارتكاب المناهي، "**إِنَّ عَذَابِي**" المعدّ للكافرين في دار الخلود "**لَشَدِيدٌ**"»[36] .

أما مهمة الخلافة أو الاستخلاف في الأرض فنعني بها الدور الذي يتحتم على الإنسان القيام به كمكلف بصفته الإنسانية بعهد لله وشروطه:

أُعَاهِدُ للهَ عَلَى أَخْذِ الْكِتَابْ   بِخِدْمَةٍ لِلْمُصْطَفَى بَابِ الصَّوَابْ[37]

إن الإنسان بهذه الصفة التمثيلية وبصفته حاملا للأمانة مطالبا ببناء الأرض وتعميرها والمحافظة عليها كما أراده لله، ومطالبا أيضا بأن يغير وجه العالم وأن يقيم عالما أخر يقر فيه سلطان لله وحده، وأن يقف في وجه الباطل والظلم والفساد، وهو في هذه المهمة لا بد أن يتعرض للغربة والوحشة والأذى والابتلاء، وهو لا يمكن أن يواجه هذا كله إلا إذا امتلأ كيانه بحقيقة الألوهية، و امتلأت نفسه بوجود لله وحضوره

---

36 من مجموعة الأجوبة والوصايا للشيخ الخديم، ص 477.

37 من القصيدة المقيدة بحروف ابتثج...

تعالى في حسه وضميره وقلبه وعقله، وبصره وسمعه، وفي كيانه كله، وحياته كلها[38]" .

نعتقد أن ما عانى منه الشيخ وتعرض له من أشكال الأذى والغربة والوحشة في سبيل أداء خدمته على أكمل وجه، إضافة إلى ما مارسه عمليا في حياته ليكفي سندا ودليلا واضحا على أن الخدمة تعني ضمنيا هذه المهمة نفسها[39] وهي التي تناوب فيها الأنبياء والرسل عبر التاريخ، كل حسب نصيبه وخصوصيته.

لقد أخذ الشيخ عهدا بأداء هذه الرسالة و "بايع" بالمحافظة عليها والعمل على تجديدها، ومواصلتها بالدعوة والنشر والتبليغ، وتجلية تعاليمها وفضائلها وفقا لمنهج لله الذي مارسه الرسول صلى لله عليه وسلم وربى عليه أصحابه.

فِيكَ أُنَادِي كُلَّ الْبِلَادِ لِذِي الْعِبَادِ بَانِي الْغِمَاءِ

يَا أَهْلَ بَرٍّ يَا أَهْلَ بَحْرِ عُوجُوا لِبَرٍّ بَحْرِ السَّخَاءِ

عِبَادَةً لَكَ وَخِدْمَةً لَهُ لِوَجْهِ مَنْ عَلَى الْوَرَى فَضَّلَهُ

---

38 راجع سيد قطب في كتابه مقومات التصور الإسلامي، ص 188.

39 ولمزيد من الإحاطة بهذه المسألة يمكن الرجوع إلى القسم المتعلق بالعلاقة بين **الخدمة والعبادة** من كتابنا المذكور سابقا.

خاتمة وآفاق

والخلاصة: أن "الخدمة" منظورا إليها من الناحية المنهجية تعتبر نظرية جديدة أحدثت ثورة عميقة في التصوف الإسلامي، ونعني بهذه الثورة الحل الواقعي لإشكالية العلاقة بين ما هو روحي باطني وما هو واقعي اجتماعي:

إن الإنسان حسب تكوينه الفطري مؤهل لأن يسمو إلى أرقى من آفاق الملائكة المقربين كما هو مستعد لأن ينحطّ إلى أدنى من دركات الحيوان، وذلك حسب ما يؤدي أمانته ويزكي نفسه، وحسب ما يبذل من جهد وإرادة في الإرتباط بربه وبمنهجه الذي جدده الشيخ ومارسه على الأصالة في أداء رسالته "الخدمة".

أما إذا نظرنا إلى الخدمة نفسها من حيث مضمونها التاريخي، فإننا نكون أمام المغزى العملي لهذه الرسالة التي يحدثنا الشيخ نفسه عن آفاق استمراريتها التاريخية في "خاتمة المناجاة بالخط".

ويبدو لنا من خلال المخطوط الخاتم لمناجاته بالخط[40] أن استمرارية الخدمة التاريخية تتحدد بمدى بقاء وخلود صاحبها أو القائم بها في آخر الزمان.

ومنظورا إليها من هذه الزاوية أي من حيث هي "مهمة إنسانية جامعة متواصلة"، يصبح ممكنا أن تشارك فيها البشرية كل حسب إرادته وطاقاته ومؤهلاته.

وهكذا نجد "الخدمة" ك"منهج" أو طريقة خاصة في السلوك والعبادة تكتسب لدى الشيخ الخديم رضي لله عنه آفاقا عميقة وشاملة. ولأول مرة في تاريخ التصوف الإسلامي يصبح على يده ممكنا أن نتحدث عن "الخدمة" بالمعنى الخاص المتميز.

---
[40] نقصد قصيدة خاتمة المناجاة بالخط